شروط وعوامل المشروع النهضوي

أ.لخضر حميدي
جامعة المسيلة

ملخص:
إن انعقاد هذا الملتقى، وفي هذه الظروف الصعبة، وبحضور رجال الفكر والثقافة في الجزائر قد يساهم في دفع المجتمع الجزائري لكي يبني مشروعه النهضوي على الصخر والصلصال لا على المتحرك من الرمال . وقد تكون مساهمتي المتواضعة هذه واحدة من أولئك الذين يهدفون إلى تجسيد ذلك الهدف ، حيث تتركز مداخلتي إن شاء الله تعالى على المحور الرابع بعناصره الثلاث:
حلول لمشكلات الإنسان الجزائري.
حلول لمشكلات المجتمع الجزائري.
حلول لمشكلات الأمة.
الكلمات المفتاحية: الثقافة- المشروع النهضوي- المجتمع الجزائري...

Abstract :
The convening of this forum, in these difficult circumstances, and the presence of intellectuals and culture in Algeria may contribute to push the Algerian society to build its renaissance project on the rock and clay and not on the mobile from the sand. My modest contribution may be one of those who aim to embody that goal, where my intervention, God willing, focuses on the fourth axis with its three elements:
Solutions to Algerian human problems.
Solutions to the problems of Algerian society.
Solutions to the problems of the nation.
Key words : Culture - Renaissance Project - Algerian Society ...

مقدمة:

يعتبر موضوع المشروع النهضوي فعلا موضوع الساعة بالنسبة لنا كمجتمع جزائري يصبو إلى النهوض والشروع في إقلاعه الحضاري ، خاصة وأن كل الظروف مواتية حاليا ، فالوسائل المادية والبشرية والمالية متوفرة . ومن المعروف طبيعيا بل ومن السنن الكونية أنه كل ما اندثرت حضارة ما قامت على أنقذاها حضارة أخرى، فالمجتمعات لا تعرف السكون بل هي في حركة مستمرة و تغير مطرد، وفي ذلك يقول العلامة **"عبد الرحمن ابن خلدون"** : **<< إن أحوال العالم و الأمم و عوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، إنما هو اختلاف على الأيام و الأزمنة و انتقال من حال إلى حال وكما يكون ذلك في الأشخاص و الأوقات و الأمصار ، فكذلك يقع في الآفاق و الأقطار و الأزمنة و الدول ، (سنة الله التي قد خلت في عباده) >>[1] .** وعلى هذا الأساس فإن هذه الحركة الاجتماعية تصبح مسألة حتمية لأي مجتمع ، قد تؤدي أحيانا إذا ما وجدت المحيط

الاجتماعي مناسبا ، ووجهت توجيها سليما إلى تغيير الواقع الاجتماعي رأسا على عقب ، ونستشف ذلك مما يقوله أيضا العلامة "**عبد الرحمن ابن خلدون**" : << **وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله و تحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد، ونشأة مستأنفة و عالم محدث**...>>[1] .

ولكن قبل الخوض في موضوعنا هذا أشير إلى ملاحظة أراها وجيهة وهي أنني حاولت اغتنام فرصة زيارة السيد الوالي لدائرتنا اعتقاد مني أن الميدان هو محك صدق الأفكار ، طرحت السؤال التالي على أحد المسؤولين : كيف تنظرون إلى التغيير الاجتماعي وترون النهضة ، وأنتم رجال ميدان ؟ فأجابني هذا المسؤول بجواب لم أكن أتوقعه : ما علاقة الفلسفة بالنهضة و بالمشروع النهضوي ؟ وقد لايكون هذا المسؤول وحده الذي يطرح هذا السؤال بل نجد الكثير الكثير، ومع ذلك أقدر هذا الشعور فيه لجهله بالفلسفة ، ولكني لا أوافقه.

إن استقراء واقعنا الحالي في ظل من العولمة يبين لنا وبما لا يدع مجالا لشك أن الصراعات الإيديولوجية كلها صراعات ذات خلفيات فكرية فلسفية . وأن قياس الأفكار عندنا لا يقاس بما هو عند غيرنا ، فالفكرة عندنا تحمل قيمتها في ذاتها ، وتقاس بسموها وعلوها، وليس فيما يترتب عنها من نتائج كالأفكار البراجماتية (**Pragmatisme**) القائمة على أساس نجاحها ، أو الأفكار الماركسية ، التي تدعي بأن الفلسفة في ماهيتها صرا ع طبقي . إننا نؤمن بأن تطور المجتمع مصدره الوعي بأفكاره والإيمان بها بالدرجة الأولى، إذا لا معنى للجانب المادي في غياب فكرة محددة واضحة المعالم يؤمن بها الإنسان ، ويعمل جاهدا على تجسيدها ميدانيا وواقعيا.

وعلى هذا الأساس فإن الاعتقاد بأن الفيلسوف بعيد في تفكيره عن واقعه الاجتماعي زور وبهتان، ذلك أن مختلف المشاكل التي تعترض الفيلسوف وتجعله يهتم بها هي عينها مشاكل مجتمعه وعصره ، فهو ليس في برجه العالي كما يقال بعيدا عن واقعه الاجتماعي، بل بالعكس نجده محتك بمجتمعه ، يعيش عن كتب كل ما يجري فيه، ومن ثمة يعمل على تغييره وتطويره بمعية أفراد آخرين خاصة الراعي المسؤول الأول عن رعيته ، والذي يجب أن يكون مؤمنا أيضا بنفس فكرة رعيته . إنني أصاب بالإحباط والذهول حينما أتأمل مئات بل ربما الآلاف من شبابنا يذهبون إلى ما وراء البحر، ويصرفون الأموال الطائلة وبالعملة الصعبة ، للاحتفال بعيد الميلاد ، ويعتبرونه حدث السنة ، ولا يعيرون أدنى اهتمام للمولد النبوي الشريف. ولذلك من الواجب ومن الضروري أن يكون هناك تطابق وانسجام من حيث الفكرة بين الفرد والمجتمع. والدليل على أهمية الفكرة أن بعض المفكرين والفلاسفة ومنهم الألماني"**هيغل**" يرى بأن مصدر كل تغيير اجتماعي إنما هو الفكر، والفكرة التي يحملها هذه الفكر. فالتاريخ عنده ما هو إلا تجليات هذا الفكر. فالعقل يتجلى في أسمى مظاهر التغيير الاجتماعي، أي حينما يتحقق من تطور الأسرة إلى المجتمع المدني، فالدولة التي ترمز حسب" **هيجل**" إلى العلاقة الموجودة بين عالم السياسة والمجتمع من جهة ، والتاريخ من

جهة أخرى حتى تتجلى بالطبع فكرة المطلق . وصدق المفكر " عبد العزيز الحبابي" حينما قال :

«إن الوعي الفلسفي شأنه في ذلك شأن كل وعي بشري لا يملك نفسه ثانية إلا داخل التاريخ وبصدد التاريخ >>[1].

ومن هنا يمكن القول أن أكثر العقول استقلالا، لا يمكن أن تفكر إلا داخل مجتمعاتها. لأن أي فكرة ما أكانت لسلطان أو الرعية لا يمكن أن تتجسد على أرض الواقع إذا لم تجد الوسط الاجتماعي مهيأ لذلك.

ألم يرفض "كارل ماركس" النزعة الميتافيزيقية ودعا إلى ربط الفكر بالعمل ، والفلسفة بالواقع ، مؤكدا أن كل فلسفة ما هي في واقع الأمر سوى تعبير عن واقع عصرها ، وأن الإنسان : آراءه ونظرياته ، وبكلمة واحدة (وعيه) ليس إلا انعكاسا للواقع الاجتماعي الذي يعيشه . وبالتالي تصبح مهمة الفكر والفلسفة، مهمتهما حقا العمل على تغيير هذا الواقع لفائدة الإنسان وتحرر الإنسان.

لقد كان " كارل ماركس" يرى بأنه لما كانت كل فلسفة هي الخلاصة الروحية لعصرها ، فيجب أن يأتي الوقت الذي فيه تتصل الفلسفة بالعالم الواقعي ، عالم عصرها ، وأن تبادله التأثير ، لا من الناحية الداخلية أي من ناحية مضمونها وحسب ، بل من الناحية الخارجية أي من ناحية تجليها أيضا . وعندئذ لن تكون الفلسفة مذهبا معينا يعارض مذاهب معينة أخرى، بل تصبح هي الفلسفة إزاء العالم، تصبح فلسفة العالم الراهن. ألم يفكر إمام الفلاسفة " أبو حامد الغزالي " أيضا لعصره ولمجتمعه ، فأحدث بذلك ثورة وهو القائل : << **وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري ، غريزة ، وفطرة من الله وضعتا ، في جبلتي ، لا باختياري وحيلتي ، حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت عني العقائد الموروثة ، على قرب عهد سن الصبا** >>[1] . ومن هنا يحق لنا القول أن الأبحاث الفلسفية يجب أن تحافظ على اتصالها المباشر بالحياة الاجتماعية، وأن تعمل على تغييرها، وإلا لا جدوى منها فعلا. وهذا هو الذي جعل فيلسوف الحضارة الجزائري "مالك بن نبي " يقول: << **وفعلا فالثورة التي لا تحركها هزة تكاد تكون شطحة صوفية فليست بثورة ... والتغييرات الثورية تصبح حلما من الأحلام إذا لم تقم على هذا الشرط >[1].**

وهذا يعني أن المفكر أو الفيلسوف لا يمكن أن يبقى حياديا ومحايدا أمام تاريخ مجتمعه، بل على العكس من ذلك، هو ابن هذا المجتمع بما يحتويه من ألام وآمال، بما له وما عليه، يسعى بكل ما أوتي من قوة فكرية إلى التجديد، ومحاولة تغيير مجتمعه، والنهوض به .

وقد كانت فكرة التجديد هذه هي نفسها التي نجدها عند دعاة تجديد الفكر العربي كالدكتور " زكي نجيب محمود" على تحميل الفيلسوف مسؤولية جسيمة من خلال قوله :

<< رجل الفكر ملتزم أمام نفسه وأمام الناس بالخوض في مشكلاتهم بطريقته الخاصة التي تختلف عن طريقة الصحفي والأديب والعالم المتخصص لأنه يتميز بدقة التحليل والتعليل اللذين يستطيع بهما أن يجاوز حدود الواقع إلى حيث المبادئ التي كانت كامنة

وتجسدت في المشكلة الجزئية التي وقعت أو إلى حيث النتائج القريبة والبعيدة التي عساها أن تترتب على تلك المشكلة >>[1] . وبذلك نرى كيف أن " زكي نجيب محمود" يقر بأن الفيلسوف أو المصلح له دور بالغ الأهمية عليه أن يؤديه على أحسن وجه ، وذلك لأن أثره أكثر من أي أثر آخر . فهو يخاطب روح وفكر مجتمعه مباشرة ، ويؤثر فيه، ونحن نعلم أن الأثر كل الأثر بالمعنويات لا بالماديات . ولو استقرءنا التاريخ الجزائري لنرى كيف أن الهبة الربانية المرسلة للمجتمع الجزائري والمتمثلة في الشيخ العلامة **"عبد الحميد ابن باديس"** والفكرة التي كان يحملها هي التي بعثت الحياة في هذه الأمة الجزائرية ، التي كانت قاب قوسين أو أدنى من هاوية اليأس ، والجنوح إلى الاستسلام ، أمام عوامل الزوال والاضمحلال التي تظافرت على محق شخصيتها ، وإبادة لغتها وقوميتها ، في جميع مظاهرها الروحية والمعنوية ، والاجتماعية والوطنية . لولا أن تداركها الله بعنايته، فقيض لها هذا الشيخ الجليل على فترة من العلماء العاملين أمثاله، وزوده بروح من عنده، فأنهضها من كبوتها، وأقالها من عثرتها، وأعاد لها ثقتها بنفسها.

لقد جدد الشيخ العلامة " ابن باديس " أمل هذه الأمة في حياة العزة والكرامة الإنسانية ، حيث تشبثت بتعاليم وآداب دينها ، وفضائله العليا ، مستعدة لأن تجود بكل عزيز عليها، من أجل صيانة دينها ولغتها أمام ذلك الاستعمار الفرنسي الذي حاول طمس الشخصية الجزائرية نهائيا . وكاد هذا الاحتلال أن يحقق أهدافه فعلا لولا مشيئة من الله أبت إلا أن تخيب مسعاه، وتبطل دعواه. بظهور هذا الرجل والفئة القليلة ، التي قامت إلى جانبه ، تؤازره في جهاده ضد الجهالة الفاشية ، ورسول الحياة إلى هذه الأمة . فكان بشير البعث واليقظة ، ورسول الحياة إلى هذه الأمة . إلى إحياء روحها ، وترقية عقلها ، وإخراجها من ظلمات الجهل ، إلى نور العلم والعمل ، ليشرع من جديد في تجسيد مشروعه النهضوي على أساس من معرفة ذاته ومعرفة كونه كائن اجتماعي تحكمه علاقات محددة مع غيره ، يعي ما له وما عليه[1] .

وقد كان فيلسوف الحضارة الجزائري "مالك بن نبي " قد عالج هذه القضية بطريقة علمية دقيقة ورائعة، حينما قال: << **فليس من الترف الفكري إذن أن نختار موضوعا كهذا الموضوع وعنوانه كيف نبني مجتمعا أفضل. فالظروف والملابسات هي التي تملي هذا الموضوع . ولو أننا تأملنا شيئا فشيئا المجتمعات الحيوانية التي تعيش كمجتمعنا، كالنحلة مثلا. فإننا نرى أن النحلة لا يمكنها أن تعيش بعسلها ونشاطها، ولا أن تحقق أهداف حياتها وكيانها لو لم يكن نشاطها هادف إلى فكرة عامة مستقرة في حياة المجتمع الذي هي جزء منه.أي في حياة ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف من الحشرات التي تعيش معها في الخلية. فلو انفصلت يوما من الأيام أو فصلا من الفصول عن الخلية فإنها ستموت حتما مهما يكن في الطبيعة من زهور >>[1].**

ويقول أيضا: << **فعلينا إذن أن نتعلم معنى الحياة الاجتماعية حتى من الحشرات، لأن في حياتها دروسا لنا قيمة >>[1].**وهذا يعني أن الإنسان كائن اجتماعي بالدرجة الأولى ، يعيش آلام وآمال مجتمعه ، فهو ليس منعزلا في خلوة ، ولا راهبا في صومعة كما يقال ، له خدمة

يؤديها يوميا لنفسه ولمجتمعه ، ولو كانت إماطة الأذى عن الطريق أو كلمة طيبة ، أو تبسم في وجه أخيه . (فالفرد للمجموع والمجموع للفرد) .ولكن بشرط انسجام الفكرة الموجودة عند الفرد مع الفكرة الموجودة لدى المجتمع، لأنه من المستحيل أن نقوم بزرع الورود في المزابل . كما أن استيراد الأفكار ومحاولة تطبيقها حرفيا دون مراعاة للقوالب المحلية الخاصة بمجتمعنا لن تقدم ولن تأخر شيء ، بل بالعكس ازددنا تبعية للغير ، وجعلتنا نعيش الإستيلاب في جميع مظاهره . ورحم الله "مالك بن نبي " حينما قال : << **فمن المحال أن نحاول بناء حضارة بأفكار غير أفكارنا وأساليب غير أساليبنا الخاصة التي تبدعها عقولنا وقلوبنا فأي مشروع نفكر فيه بأفكار البعض ونحاول انجازه بوسائل البعض الآخر معرض للفشل لا محالة ... ثم إن علينا أن نحدد بأي وسيلة سنبلغ ذلك الهدف ... فليس من المقبول أن نستثمر ما نرغب فيه ونريده حتى بالوسائل التي هي في يد الغير ، بل علينا أن نستثمر ما نستطيع بالوسائل الموجودة فعلا في أيدينا** >> [1] .

نحو حلول لمشكلات الإنسان الجزائري:

إن سعادة الإنسان أو شقاوته أو قلقه أو سكينته تنبع من نفسه وحدها . فهو الذي يعطي الحياة لونها البهيج، أو المقبض، كما يتلون السائل بلون الإناء الذي يحتويه. وهذا يعني أن الأمر يخضع للاعتبار الشخصي ،فإن شاء هذا الشخص جعل الأمر تطهيرا ورضي به ، وإن شاء جعل منه سخطا وهلاكا ، ولذلك نجد الرجل الذي تربو ثقته بنفسه لا يشل إقدامه على الحياة .
وفي هذه الحدود نفهم قول:
" **جمس آلن**" :

<< **دع إنسانا يغير اتجاه أفكاره، وسوف تتملكه الدهشة لسرعة التحول الذي يحدثه هذا التغير في جوانب حياته المتعددة. إن القدرة الإلهية التي تكيف مصايرنا، مودعة في أنفسنا، بل هي أنفسنا ذاتها** >>. و كل ما يصنعه المرء هو نتيجة مباشرة لما يدور في ذهنه، فكما أن المرء ينهض على قدميه وينشط وينتج بدافع من أفكاره، كذلك يمرض ويشقى بدافع من أفكاره أيضا.
ورحم الله " **أبو الطيب المتنبي** " الذي قال:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم   وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير الصغائر   وتصغر في عين العظيم العظائم

إن تجدد الحياة ينبع قبل كل شيء من داخل النفس. إنها بقواها وقدراتها الكامنة تجعل الإنسان يستطيع أن يبني حياته من جديد. والإنسان يرجع فشله إلى أنه يطلب النتائج المستحبة بسرعة، على حين يكون محاصرا بظروف لا تسمح له بذلك. وقد قال" **نابليون**"" في منفاه بجزيرة القديسة (هيلانة) :
<< **لا أحد سواي مسؤول عن هزيمتي . لقد كنت أعظم عدو لنفسي** >> [1].

إن التقليد والمحاكاة إلى درجة الانصهار في بوتقة الآخر هلاك ليس بعدها هلاك، وإن خروج الإنسان عن عاداته وتقاليده، وعن طباعه العقلية والنفسية أمر يفسد على الإنسان حياته ويثير الاضطراب في سلوكه.

وقد علمت قصة الغراب الذي راقه المشي على الأرض، فلا هو استطاع الخطو كما ينبغي، ولا استطاع الطيران كما خلق. وباختصار شديد عسير على الإنسان مهما حاول أن يكون غيره.

و من هنا وعلى هذا الأساس فإن لكل إنسان وجهته الخاصة، ويجب أن تكون لتلك الوجهة غاية معينة تنظم سيرها، وتحكم أمرها. ولا نستطيع أن نتصور اتجاها للمرء ليس له غاية مقصودة أو غرض منشود إلا أن يكون أبله أو مجنونا. إن الحديث عن أي مشروع نهضوي في الجزائر لا يمكن أن يكون إلا بالحديث عن الفرد الجزائري ، ذلك أن أي تقدم اجتماعي نصبو إليه ، إنما تكون انطلاقته من داخل هذا الفرد الجزائري ، فإذا ما تغيرت الأنفس تغير المجتمع ، وغير مجرى تاريخه . وتستمد هذه النفس قوتها أو ضعفها من فكرتها التي تحملها، والتي تعبر عن ماهيتها وجوهرها. ورحم الله ذالك الشاعر الذي قال : أقبل
على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وهذا يعني أن الإنسان ليس جسما ومادة فقط يأكل ويشرب، ويتلذذ ويتمتع بالحياة عن طريق العلم والتكنولوجيا والفن وغيرها، بل هو روح بالدرجة الأولى، بها يسمو ويعلو. وفي هذا نجد المفكر الجزائري فيلسوف الحضارة " مالك بن نبي " يقول:

<< **ولكن أوضاع القيم تتطلب في عصور الانحطاط بحيث تبدو صغائر الأمور ذات خطر كبير فإذا ما حدث حادث إنهار البناء الاجتماعي إذ هو لا يقوى على البقاء بمقومات الفن والعلم والعقل فحسب ، لأن الروح والروح وحدها هي التي تتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم ، فحيثما فقدت الروح سقطت الحضارة وانحطت لأن من يفقد القدرة على الصعود لا يملك أن يهوى بتأثير جاذبية الأرض** >>. وعلى هذا يمكن القول أنه إذا أدرك هذا الفرد الجزائري فكرته ، واقتنع بها قلبا وقالبا ، وحدد وجهته ، شرع في الإقلاع الحضاري محاولا تجسيد مشروعه النهضوي على الصخر والصلصال لا على المتحرك من الرمال .

هذه الفكرة يجب أن تكون هي نفسها الفكرة الموجودة لدى السلطان، والذي يجب أن يكون مقتنعا هو أيضا بها قلبا وقالبا، حتى لا يحدث الانفصام بينهما، ويبقى هذا المجتمع ينتظر في المحطة ولا يصعد لركوب قطار الحضارة.

هذه الروح العلوية وهذه الأفكار الحية ، مع توفير المناخ الصالح تجعل المجتمع يحمل مشروعه النهضوي على عاتقه بثيات ، ويصون أمانته . وبهذا المعنى يصبح هذا الإنسان مع غيره من أفراد مجتمعه قادرا على فهم نفسه وفهم الواقع المحيط به ، فيعمل في نفس الاتجاه ، بمعنى أن الفرد يخضع تارة للآلة الاجتماعية ، والمجتمع يخضع أيضا للفعل المؤثر للفرد ، فتصبح العلاقة بينهما تكاملية فالمجتمع يتولى تشكيل الفرد ، والفرد يساهم في خلق هذا التشكيل نفسه ، فيحدث الإقلاع الحضاري .

وقد يقول البعض هل الفكرة الروحية تكفي لوحدها لشروع في المشروع النهضوي؟ نقول ببساطة أن المنطلق لبناء هذا المشروع النهضوي يجب أن يكون له محرك يدفعه للانطلاق نحو هدفه النهضوي ، وهذا المحرك هو هذه الفكرة، وهذه الفكرة لا تأبى الاقتباس فيما لا يتعارض مع خصائصها الذاتية . هذه الفكرة التي يجب أن نقرأها بلسان العصر ، وأن نعمل بها على ضوء معطيات العصر وفي ظل من العولمة . كما يجب علينا توفير جملة من الشروط والعوامل للإنسان الجزائري، أولاها وأهمها مسألة الحقوق والواجبات. فمن حق الإنسان الجزائري المعرفة والكشف، لأن الإنسان في عالمنا الأرضي هو الكائن المتميز، المتفوق، وما سواه فيه من موجودات أخرى قضى عليها أن تكون في خدمته. ولذا يجب أن يعرف الإنسان كيف يكون خليفة الله في الأرض، ويسخر ما فيها وما فوقها له ولوطنه. لذا يجب أن يكون العلم للجميع في سن التعليم إلزاميا ، وأن نهيأ كل الوسائل لتيسيره . ومن حقه أيضا الحرية في التعبير عما يجيش به صدره أو ينتهي إليه فكره بالقلم أو اللسان أو بالكتابة أو بالصحيفة أو بالخطابة ، وأن تكون له الحرية في نقد التصرفات الخاطئة ، بشرط أن يكون تعبيره بعيدا عن الإيذاء للآخرين مصداقا لقوله تعالى : << **وقل لعبادي يقول التي هي أحسن**>> * . وهذه الحرية التي نتحدث عنها لا نقصد بها تلك الحرية المطلقة التي يعمل الفرد بمقتضاها ما يشاء ، ولو كانت على حساب غيره ، لأن الحرية المطلقة لا وجود لها فكل شيء له حدود ، وإنما المقصود بها أن يعمل الفرد كما يريد في نطاق حقوقه المشروعة وحدوده المرسومة . وأخيرا من حق الإنسان الجزائري أن يكون له شغل محترم لإعالة عياله، ولكي يحظى بحياة كريمة. ولكن الحديث عن الحقوق لا ينسينا الواجبات و التي نجد من أهمها: فمن واجبه حب الوطن لأن حب الوطن من الإيمان ، والإخلاص له في العمل سرا وعلانية كل في موقعه، فالمسؤولية أمانة وعهد لشهداء . وعليه الحفاظ على مكتسبات البلاد ، ومحاولة تتمة وتكملة ما بناه السلف الصالح ، وليس الهدم ، والانطلاق من جديد ، فالأجيال ورغم الأخطاء التي قد ترتكبها في معركة البناء والتشييد تبقى امتداد لبعضها البعض شاءت أم أبت . وفكرة الحقوق والواجبات حساسة وشائكة تقتضي منا الوقوف عندها خاصة هذه الأيام والتي اختار فيها الناس الطريق السهل والبسيط وهو طريق المطالبة بالحقوق، وابتعدوا بل صدوا وجوهم تماما عن الطريق الصعب وهو طريق الواجبات.

إذا كان الفرد له حق على غيره فحقهم واجب عليه، أو العكس. فالمواطن الذي يعمل في الإدارة من واجبه أن يخدم المواطنين ويقضي لهم مآربهم التي يحتاجون إليها عنده وإذا لم يقم بواجبه أضاع حقوقهم وأوقاتهم، ودفعهم إلى المطالبة بها بجميع الوسائل . والشرطي الذي لا يسهر على حفظ الأمن وسلامة المواطنين ، فإنه يكون قد ساعد على انتشار الفوضى والبلبلة في البلاد ، وتخلى عن واجبه الذي هو خدمة الوطن والمواطنين ، لأن كل فرد في الحياة الاجتماعية له حقوق وعليه واجبات ، فالفلاح والتاجر والعامل والموظف والمسؤول كل واحد من هؤلاء له حقوق وعليه واجبات ، وإذا لم يقم أحدهم بواجبه يكون قد هضم حقوق غيره بعدم توفير الأمور المنوطة به .

وهذه التصرفات تجعل أفراد المجتمع الواحد يفقدون الثقة فيما بينهم وتنزع منهم الطموح والتطلع وهذا من شأنه أن يؤدي إلى عدم التعاون والانسجام فيترتب عن ذلك الاصطدام والصراع الذي يؤدي إلى إصابة المجتمع بالفقر والمرض والجهل ثم الانحطاط والتخلف .

إن تبادل القيام بالواجب يعمل على تنشيط الأفراد ويقوي آمالهم فيندفعون إلى العمل الجاد وينصرفون عن المشاغبات والمشاحنات، وبذلك يوفرون لأنفسهم الراحة والطمأنينة وكل وسائل الحياة.

غير أن الأفراد يختلفون في طباعهم وأخلاقهم فنجد المتخلق وغير المتخلق والمخلص والمستهتر.

ولذلك يجب فرض نظام محكم يخضع لقوانين صحيحة كما تفرض الرقابة على الجميع التي تساعد على محاسبة كل من تخلى عن واجبه لأن العمل لا يسير تلقائيا بل يحتاج إلى ضبط ومتابعة ومحاسبة وجزاء

وقد كان الفرنسي " أوغست كونت " يرى أن الأفراد إذا قام كل واحد منهم بواجبه تجاه الآخرين لتحققت حقوق الجميع من دون المطالبة بالحقوق تخل بالتوازن الاجتماعي وتفتح الباب على مصراعيه للرغبات الشخصية خاصة وأن الناس يطالبون بأكثر مما يستحقون إرضاء لميولهم الغريزية التي تتنافى مع الحياة الاجتماعية وتجعل الأشخاص يعتدون على حقوق غيرهم ولو تصورنا أن كل أفراد المجتمع يقومون بأداء واجباتهم على أحسن وجه لما وجدنا من يطالب بحقه .

<u>حلول لمشكلات المجتمع الجزائري</u>

لعل بدايتي في هذه المسألة تكون مما قاله د/ "محمود قاسم" في مقدمته لكتاب معركة المفاهيم لد/ "عبد الله شريط" : رحمهما الله << **إن عبد الله شريط يريد أولا أن يوقظ الجزائريين على حقيقة هي أن الثورة الجزائرية معجزة العالم الإسلامي في القرن العشرين ، ليست هدفا في ذاتها ولكنها مرحلة في طريق نهضة العالم العربي بأسره** >> **ويقول أيضا :** << **إن النصر ليس سوى نقطة بدء فقط فإن (الشعب المقتدر ليس هو الذي يقوم بثورة رائعة فحسب . بل إلى جانب ذلك يحافظ على قيمتها ويعرف كيف يستفيد من تضحياته فيها** >>[1]. وعلى هذا الأساس إذا أردنا أن نبني مجتمعا يتجه في تفكيره إلى الأعلى لا إلى الأدنى ، يتجه إلى تحصيل المعرفة ، لا إلى الصد عنها ، إلى البناء ، لا إلى الهدم ، يبني لنفسه ولأمته يجب التركيز على أن يتعلم هذا المجتمع العلوم المختلفة ، فنحن أمة " <u>إقرأ</u> " فكيف وصل بنا الحال إلى ما نحن عليه؟ **وكيف يصدر تقرير عن الموقع الأمريكي " ويبومتريكس " يحوي آخر تصنيف للجامعات في العالم ، ولم يفاجئ التقرير أحدا عندما صنف أحسن جامعة في الجزائر في المرتبة أل 2100 عالميا ؟(جريدة الشروق،الصفحة 02 ، مقال لرشيد بوسيافة، بتاريخ 2013/03/12).** نحن أمة " **<u>الحديد</u>**" فكيف لا نعرف الحديد ؟ لا نصنع ولو إبرة، وغيرنا وصل إلى سطح القمر وإلى المريخ. يقول المفكر الجزائري " مالك بن نبي" رحمه الله: << **فنحن قد مررنا في طريقنا مر**

الكرام. تستوقفنا الزهور التي في جنباتها مرة ونتسلى بالطيور أخرى ونصغي إلى صوت أوروبا أحيانا ونشيد البلابل الأوروبية . أما الياباني فقد فكر في خطته تفكيرا علميا . وخطط لها تخطيطا فنيا ، وبعث في الأنفس حقيقة فكرة عامة جعلت كل ياباني يتصل بالمجتمع الياباني كما تتصل النحلة بخليتها >>. ثم يقول : **<< إن اليابان قد بنى مجتمعا متحضرا ، فهو قد دخل الأشياء من أبوابها . وطلب الأشياء كحاجة . درس الحضارة الغربية بالنسبة لحاجاته . وليس بالنسبة لشهواته ، فلم يصبح من زبائن الحضارة الغربية ، يدفع لها أمواله وأخلاقه . أما نحن فقد أخذنا منها كل رذيلة وأحيانا نأخذ منها بعض الأشياء الطيبة التي قدرها الله لنا >>.**

على المجتمع الجزائري أن ينتقل من مرحلة الكلام إلى مرحلة العمل، ومن مرحلة البكاء على الماضي إلى العمل للحاضر والتخطيط للمستقبل، وأتذكر في هذا المقام أحد الشعراء الجزائريين، وهو فيما أعتقد "سليمان جوادي " الذي قال:

القدس لنا القدس لهم

القول لنا الفعل لهم

الاهتمام بالمرأة ومن ثمة الأسرة ثم الطفولة فالأم مدرسة كما قال حافظ إبراهيم إن أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق، هي التي أنجبت العمالقة و العظماء "إذ وراء كل رجل عظيم امرأة". و رحم الله الرافعي الذي كان يرى (إذا أنت علمت رجلا فقد علمت فردا وإذا أنت علمت إمرأة فقد علمت جيلا) . وهذا يعني الاهتمام بمختلف شرائح المجتمع.

إن إعداد مجتمعنا لتغيير وبناء مشروعه النهضوي ليس بالأمر الهين ، وإنما يحتاج إلى طاقة وجهد من كل أفراد المجتمع وإلى إرادة سياسية من طرف السلطان حتى يصبح هناك توافق بين ما يقوم به الراعي وما تقوم به الرعية ، ولن يتأت هذا إلا بالأخذ بعين الاعتبار مجموعة من العوامل و الشروط أراها في اعتقادي ضرورية لمشروعنا النهضوي أذكر من أهمها ما يلي :

1- مقاومة موجة التخنث و التقليد الأعمى الذي أفقد الشباب شخصيته في زيه و مظهره في سلوكه و مخبره، بحيث يتوارى من المجتمع أولئك المشبوهون من الرجال بالنساء و المشبوهات من النساء بالرجال .

2- العناية بالشباب، لأنهم كما يقال: عدة الحاضر و ذخيرة المستقبل و إعدادهم بدنيا بالرياضة، وروحيا بالعبادة و علميا بالثقافة و عسكريا ب الخشونة و اجتماعيا بالخدمة و المصالح العامة. ولنا في السلف الصالح عبرة . لقد كان أمير المؤمنين : "عمر بن الخطاب " يخاطب الناس قائلا لهم : **علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل وأمروهم فليثبوا على ظهور الخيل وثبة .**

تطهير المجتمع من أسباب الإغراء، ودواعي الإثارة و مقاومة مظاهر التعري و الإباحية و تبرج الجاهلية و نشر الأخلاق الفاضلة.

القضاء على الرشوة بدراسة أسبابها . وتشديد الرقابة على الجهاز الإداري و محاولة إصلاحه وتطهيره من العناصر الفاسدة و الاجتهاد في وضع الرجل المناسب في المكان المناسب و قد جاء في صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه و سلم:
(إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، فسئل وكيف إضاعتها ؟ قال : إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة)*.
الارتقاء بشتى أنواع الفن بعيدا عن إثارة الغرائز و تلويث الأفكار أكان ذلك في الكلمات المكتوبة أو المسموعة أو الصورة المرئية خاصة الهوائيات المقعرة و مختلف القنوات الفضائية .
غلق دور اللّهو التي تشيع الفاحشة و أندية القمار و المخدرات و الحانات و غيرها و لا عبرة بما يقال من جلب السياح و كسب العملات الصعبة فإن إثمها أكبر من نفعها و أخلاق المجتمع و الأمة أولى من كسب رخيص كما أنه لدينا من الثروات ما يغنينا عن طريق الشيطان .
هذه جملة من الاقتراحات التي تساهم في اعتقادي في الإقلاع الحضاري وبناء مشروعنا النهضوي فالفرد للمجموع و المجموع للفرد .

حلول لمشكلات الأمة

إذا نظرنا إلى أمتنا في ضوء معايير التقدم وجدناها وراء ، وراء . إنها لا زالت عالة على الغرب في كل شيء من الإبرة إلى الصاروخ ، وهي معطلة الطاقات برغم كثرتها وضخامتها وتنوعها ، فأحقر شيء عندها هو العمل ، وأرخص شيء عندها هو الوقت ، ورحم الله الشيخ العلامة "محمد متولي الشعراوي" الذي سمعته في القناة الفضائية الكويتية يقول بأن الوقت لا معنى له عند الإنسان العربي إلا في مكان واحد (ملاعب كرة القدم) وخاصة في الوقت بدل الضائع حينما تكون الفرق العربية والإسلامية منهزمة .
إن أمتنا لم تستغل ثرواتها بما فيها الإنسان ، ولم تزرع أرضها وأصبح الطابع الغالب عليها أن تستهلك ولا تنتج ، وتستورد ولا تصنع وتصدر، مجتمعات مستهلكة ، ورحم الله الشيخ العلامة " محمد الغزالي " الذي كان يرى بأنه **(لو قلنا للأشياء عودي من حيث أتيت لبقينا حفاة عراة) .**
طاقاتنا العددية معطلة : فنحن وإن تجاوزنا مليار ونصف المليار مسلم تفرقنا طرائق قددا ، والتفرق يضعف الكثرة ، كما أن الاتحاد يقوي القلة ، نحن في عصر يتكلم بالكتل الكبيرة ، وبهذا نرى الدول المتقدمة تقيم فيما بينها التكتلات والأحلاف العسكرية والأسواق الاقتصادية ، إلى جانب التكتلات السياسية . فأين الأمة الإسلامية من كل هذا ؟ إن أوروبا اليوم تقترب حتى يوشك أن تكون دولة واحدة تذوب بين أقطارها الفواصل والحدود. بل رأينا المذاهب المسيحية يقترب بعضها من بعض في وقت يزداد فيه التباعد بين مذاهبنا. بل رأينا أن اليهودية والنصرانية على ما كان بينهما من عداء تاريخي يتقاربان ويتعاونان في مجالات شتى لدرجة أن أصدر الفاتيكان منذ سنوات وثيقته الشهيرة بتبرئة اليهود من دم المسيح. لقد

انتهى عهد الكلام والديماغوجيا ، وحان وقت العمل والإقدام ، فمشاكلنا عديد ومتداخلة ومعقدة ، ولتغلب عليها يجب البحث عن مختلف الأسباب والعوامل ، فالإمكانيات المالية والبشرية والمادية موجودة ومع ذلك بقينا في عداد التابعين لا القائدين . فأين الخلل ؟ لعل الخلل يعود إلى ما يسميه فيلسوف الحضارة الجزائري " مالك بن نبي" (**بالفعالية Efficacité**). ولتوضيح ذلك ضرب لنا "مالك بن نبي " مثال ذلك الطفل الصغير الذي يقود الجمل كيفما شاء يمينا ويسارا بعصا أو بدون عصا . فالجمل القوي يفقد بطبعه ومن فضل الله علينا نحن الآدميين شيئا بسيطا هو الإرادة. وأما الصبي الضعيف فإنه قوي بالإرادة التي يمتاز بها جنسه على غيره من الأجناس.

والمثال الثاني صورة الشعب الانجليزي ورغم قلة عدده تصرف في ثاني إمبراطورية من حيث عدد السكان بعد الصين ، ألا وهي الإمبراطورية الهندية . وهذا دليل على أن العبرة في الكيف وليست في الكم ، كما أنها دليل على ما يحدثه عامل الفعالية في تغير الأشياء والأوضاع وصناعة التاريخ[1] . ناهيك عن التجربتين اليابانية والألمانية . فلما لا نفعل ما فعلته هذه الشعوب كالألمان ، وهل تخلى المجتمع الياباني عن فكرته ، مع العلم أن إمكانياتها ضئيلة مقارنة مع إمكانياتنا ؟ وبذلك يتأتى لنا التواصل مع التاريخ من خلال أخذ الدروس والعبر من الماضي ، لأن الماضي ليس ماضيا وحسب نرقبه كما نرقب مادة جامدة ، فكل ماض كان حاضرا بالنسبة لأولئك الذين عاشوه ، وقد عاشوه بحرارة وحماسة ليبنوا به مصيرهم كما نعيش نحن اليوم حاضرنا بحرارة وحماسة لنبني مصيرنا . وإذا كانت شروط النهضة والإقلاع الحضاري متوفرة وموجودة، ومع ذلك لم يحدث ذلك، فما السبب ؟ في اعتقادي أن الذي بقي هو: من يحرك هذا الفرد الجزائري المسلم ويجعل مختلف القدرات الكامنة فيه تتفتق وتتفجر وتصبح فعالة لأن: << **الجماعة الإنسانية لا تكسب صفة المجتمع إلا عندما تشرع في الحركة، أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها، وهذا يتفق من الوجهة التاريخية مع لحظة انبثاق حضارة معينة** >>.

كما يجب علينا إذا ما أردنا فعلا الشروع في تجسيد مشروعنا النهضوي على أرض الواقع أن نخلص الفكرة الروحية من مختلف البدع التي ألحقت بها . ورحم الله "مالك بن نبي" حينما قال << **إنه يجب علينا بادئ الأمر تصفية عاداتنا وتقاليدنا ، وإطارنا الخلقي والصناعي مما فيه من عوامل قتالة منها حتى يصفو الجو للعوامل الحية واعية إلى الحياة وإن هذه التصفية لا تأتي إلا بفكر جديد يحطم ذلك الوضع الموروث عن فترة تدهور وأصبح يبحث عن وضع جديد هو وضع النهضة** >> .

لقد ظهرت مصطلحات ومفاهيم جديدة لعل أبرزها النظام العالمي الجديد ، وحوار الحضارات ، والتعاون جنوب جنوب وأخيرا العولمة بعد انهيار المعسكر الشرقي ، وسقوط جدار برلين ، ومأساة حرب الخليج ، وحرب البوسنة ، وتنامي التيار الإسلامي بشقيه السياسي والمسلح من جهة ، ومحاولة الولايات المتحدة الأمريكية فرض نظام عالمي جديد ، مما نشب عن ذلك مواجهة الثقافات لبعضها البعض .

ومن هنا إذا فالتفاعل والاحتكاك بين الثقافة المحلية و الثقافات العالمية الأخرى مسألة حتمية و ضرورية لامناص منها. وعلى الثقافة المحلية أن تركب قطار ثقافة العولمة و تتفاعل معها تبعا لإمكانياتها و خصائصها و تتكيف معها ، أو تبقى جامدة ثابتة ساكنة لا تحرك ساكنا يتجاوزها الزمن و تبقى في مؤخرة التاريخ تابعة لثقافات أخرى . لاشك أن الواقع الحالي يجيب عن هذا السؤال بدون تردد ، فالعلم أصبح قرية صغيرة ولا مناص لنا من التعامل مع الغير من خلال تحويل ثقافتنا من ثقافة الاستهلاك إلى ثقافة الإنتاج ،ومن خلال أيضا كيفية تقديم ما عندنا للعالم بطريقة عقلانية حتى يتأتى لنا التواصل مع التاريخ و ليس الانسحاب منه، من خلال تكوين نظرة خاصة بنا تتجاوز المدرستين السائدتين:1- مدرسة كنت 2- مدرسة عندي . و أستحضر هنا قول أحد الشعراء السعوديين : نبني كما بنى الأوائل و نعمل كما عملوا . فتدخل الملك السعودي "عبد العزيز" و قال: ونعمل فوق ما عملوا. وبذلك ننتقل من مرحلة الدونية إلى مرحلة العلوية .

التكامل الاقتصادي في ما بين الدول العربية والإسلامية خاصة و أن هذه الأخيرة تتمتع بإمكانيات اقتصادية كبيرة ومواقع جغرافية إستراتيجية و لو قدر لهذه الإمكانيات أن تنظم و تستغل الاستغلال الأمثل لأصبح هذا العالم الإسلامي ممسكا بزمام الأمور في العالم كله .

إذن لا يحق لنا أن نكون من المتشائمين ، ولا من الذين يقولون بالجبرية (حتمية التخلف) و لا مفر لتغيير طبيعتنا وسلبيتنا وعبثنا ، واستهتارنا ، وإنما أعتقد أن الحياة تعطي لكل ما يستحقه ، وأن الأمة التي بعث فيها محمد (صلى الله عليه وسلم) وأنجبت حمو رابي ، وماصنيصا ، وخلق فيها ابن خلدون وابن باديس، ومالك بن نبي ، وطردت الصليبيين بعد قرنين من الحروب ، أمة ولود ليست عقيمة قادرة على أن تنجب عبر تاريخها رجال يصنعون مصيرها ويغيرون من مجرى تاريخها ، أمة قادرة على أن تتغلب على نفسها وتتجاوز أقدارها البائسة ، فالمعركة قبل أن تكون مع الغير هي مع أنفسنا ، مصداقا لقوله تعالى : << **إن الله لا يغيروا ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** >> * .